الفصل الثالث

من أفكار الإستعمار

(أ) ورقة عن العلمانية

المغالطة والتضليل هما مدخل الدعوة العلمانية إلى طرح أفكارها، والفهم والتنوير وكشف الخلفيات هي سبيل الرد عليها. أولى مغالطات العلمانية في ذلك الاسم الذي اشتهرت به والذي يوحي خطأ بنسبتها إلى العلم الذي أصبح من قوى هذا القرن (القرن العشرين) الكبرى والمنشودة بأي ثمن إن هذه الكلمة التي تنطق عادة بكسر حرف العين وسكون حرف اللام ترجمة ركيكة قام بها بعض نصارى الشام لكلمة SECULARISM بالإنجليزية ولها نظائر في لغات الغرب الأخرى، والنطق الصحيح لهذه الكلمة يكون بفتح العين وسكون اللام والكتابة الصحيحة هكذا (العالمنية)[١] والترجمة الصحيحة لهذه الكلمة هي اللادينية أو الدنيوية لا بمعنى ما يقابل الآخرة فحسب بل بمعنى أخص هو ما لا صلة له بالدين أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد.[٢]

لقد أوردت دائرة المعارف البريطانية المعنى (هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها،

(١) محمد يحيى، ورقة ثقافية في الرد على العلمانيين، الطبعة الأولى (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٥م) صـ١١

(٢) سفر بن عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية، الطبعة بدون (القاهرة: دار العلماء للنشر والتوزيع، ٢٠١٠م) صـ٢١

وذلك لأن الناس في العصور الوسطى كان لديهم رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخر وفي مقاومة هذه الرغبة بدأت العلمانية تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات البشرية والثقافية وبإمكانية تحقيق مطامعهم في هذه الدنيا القريبة. وظل هذا الاتجاه يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله، باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية يقول قاموس العالم الجديد: لوبستر شرحاً للمادة نفسها:

١- الروح الدنيوية أو الاتجاهات الدنيوية ونحو ذلك ، على الخصوص: نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض أي شكل من أشكال الإيمان والعبادة.

٢- الاعتقاد بأن الدين والشئون الكنسية لا دخل لها في شئون الدولة وخاصة التربية العامة.

وفي معجم أكسفورد شرحاً لكلمة (SECULAR).

١- دنيوي أو مادي، ليس دينياً ولا روحياً مثل التربية اللادينية الفن أو الموسيقى اللادينية، السلطة اللادينية، الحكومة المناقضة للكنيسة.

٢- الرأي الذي يقول أنه لا ينبغي أن يكون الدين أساساً للأخلاق والتربية.

وفي المعجم الدولي الثالث مادة SECULARISM اتجاه في الحياة أو في أي شأن خاص يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب أن لا تتدخل في الحكومة أو استبعاد هذه الاعتبارات استبعاداً مقصوداً، فهي تعني مثلاً، السياسة اللادينية البحتة في الحكومة.

وهي نظام اجتماعي في الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين.

يقول المستشرق (أربري): في كتابه الدين في الشرق الأوسط عن الكلمة نفسها، أن المادية العلمية والإنسانية والمذهب الطبيعي والوضعية كلها أشكال للادينية واللادينية صفة مميزة لأوروبا وأمريكا ومع أن مظاهرها موجودة في

الشرق الأوسط فإنها لم تتخذ أي صبغة فلسفية أو إدارية محددة والنموذج الرئيس لها هو فصل الدين عن الدولة في الجمهورية التركية).

والتعبير الشائع في الكتب الإسلامية المعاصرة (فصل الدين عن الدولة) وهو في الحقيقة لا يعطي المدلول الكامل للعلمانية الذي ينطبق على الأفراد وعلى السلوك الذي قد لا يكون له صلة بالدولة، ولو قيل (فصل الدين عن الحياة) لكان أصوب، ولذلك فإن المدلول الصحيح للعلمانية هو إقامة (الحياة على غير الدين) سواء بالنسبة للأمة أو الفرد ثم تختلف الدول أو الأفراد في موقفها من الدين بمفهومه الضيق المحدود: فبعضها تمسح به، كالمجتمعات الديمقراطية الليبرالية وتسمى منهجها (العلمانية المعتدلة) non religious أي مجتمعات غير دينية ولكنها غير معادية للدين وذلك في مقابل ما يسمى (بالعلمانية المتطرفة) anti religious أي المضادة للدين ويعنون بها المجتمعات الشيوعية وما شاكلها.

ولكن بالنسبة للإسلام لا فرق بين العلمانية فكل ما ليس دينياً من المبادئ والتطبيقات فهو في حقيقته مضاد للدين فالإسلام واللادينية لا يجتمعان ولا واسطة بينهما.(١)

نحن أمام مصطلح منقول عن البيئة الغربية الأوروبية وليس له نظير في العربية أو الفكر الإسلامي وهو يحمل وراءه ثقل قرون من المفاهيم والممارسات الغربية في مجال الدين والحياة السياسية والاجتماعية فضلاً عن أنه يتعلق بدين غير الإسلام وهو المسيحية الغربية. والكلمة بهذه الصورة تكشف لنا عن أن الدعوة بأسرها تتبع بالكامل في سياق حركة التغريب والأروبة والإستعمار الثقافي التي يعاني منها عالم الإسلام منذ أكثر من قرن من الزمان والتي تصور مفاهيم وأفكار الغرب على أنها مطلقة عامة وعلى أنها الحق الذي توصلت إليه البشرية في تقدمها المضطرد الواصل إلى ذروته في أوروبا، ومن ثم يجري فرض هذه المفاهيم دون مناقشة لها وإحلالها محل أي عقائد أو تصورات أخرى في البلاد

---

(١) المرجع نفسه ص٢٣-٢٤

المستعمرة وذلك في غيبة التيارات الإسلامية أو عزلها.[(١)]

هناك أسباب للعلمانية في أوروبا نذكر منها على وجه الاختصار:

أولاً: الطغيان الكنسي:

أـ الطغيان الديني:

عززت الكنيسة سلطتها الدينية الطاغية بحقوق لا يملكها إلا الله، مثل حق الغفران وحق الحرمان وحق النحلة، ولم تتردد في استعمال هذه الحقوق واستغلالها فحق الغفران أدى إلى المهزلة التاريخية (صكوك الغفران، وحق الحرمان عقوبة معنوية بالغة كانت شبحاً مخيفاً للأفراد والشعوب).

٢ـ الطغيان السياسي:

كان ملوك أوروبا يضيقون زرعاً بتدخل الكنيسة المتعنت في كل شؤونهم، ذلك التدخل الذي لا يجدون له مبرراً على الإطلاع وفي نظرهم لم يكن لرجال الدين عليهم إلا القداسة ومع ذلك فهم أيضاً مقدسون، إن لم يكن بأنفسهم بنسبهم يقول فيشر (تاريخ أوروبا العصور الوسطى) وكانت الأسر الحاكمة في أوروبا تستمد بقائها من صلتها بالنسبة بأحد القديسية فيرثون منه قداسته ولا يبالي الشعب بعد ذلك بتصرفاتهم لأنهم مقدسون، وأن أمثله لهذا الطغيان كثيرة ومتعددة من قبل حكام ذلك الزمان.

٣ـ الطغيان المالي:

وقد تمثل الطغيان المالي في:

أ- الأملاك الإقطاعية: أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأرض، حتى أصبحت جزءاً من النظام الإقطاعي، وكان هذا الوضع يسئ لكل مسيحي متمسك بدينه وكانت سخرية تلوكها الألسن عند الخارجين على الدين ومصدراً للجدل والعنف بين الأباطرة والبابوات.

---

(١) محمد يحيى، ورقة في الرد على العلمانيين، مرجع سابق ص١١- ١٢.

٢- **الأوقاف:** كان لكل كنيسة أوقاف تدعى أنها تصرف منها على مكان الأديرة وبناء الكنائس وتجهيز الحروب الصليبية.

٣- **العشور:** فرضت الكنيسة على أبنائها عشور (ضرائب) وكانت تدعي إن هذا حق.

٤- **ضريبة السنة الأولى:** وهي بدعة فرضها البابا حنا الثاني والعشرون جديدة هي (ضريبة السنة الأولى) وهي مجموعة الدخل السنوي الأول لوظيفة من الوظائف الدينية أو الإقطاعية تدفع للكنيسة.

٥- **الهبات والعطايا:** تقدم هدايا من الأثرياء للكنيسة للتملق والرياء والبعض بدافع الإحسان، وهناك مراسم مقدسة ومهرجانات تدر الأموال الهائلة على الكنيسة.

٦- **العمل المجاني: السخرة:** كان للكنيسة رقيق وإن بعض رجال الدين يملكون الآلاف من الأرقاء الذين يعملون في إقطاعيات الكنيسة بدون أجر، وتضجر بعض رجال الدين الصغار وبعض الملوك من هذا.

ثانياً: الصراع بين الكنيسة والعلم:

حقيقة كان بين الكنيسة والعلم وليس بين الدين والعلم ذلك لأن الدين بصبغته الإلهية النقية لم يدخل المعركة والكنيسة ارتكبت خطأين فادحين:

١- تحريف حقائق الوحي الإلهي وخلطها بكلام البشر.

٢- فرض الوصايا الطاغية على ما ليس داخلاً في دائرة اختصاصها.

حاولت الكنيسة أن تحتكر العلم وتهيمن على الفكر البشري وثارت ثائرة رجال الكنيسة على الذين يتلقون علوم الكفار (المسلمين) ويعرضون عن التعليم المقدسة وأعلنت حالة الطوارئ ضدهم وشكلت لهم محاكم التفتيش حتى تذيقهم النكال وأصبحت هناك معركة وأصبحت كذلك هناك انتفاضات ضد الكنيسة، وكان النزاع على أوجه خاصة عند ظهور النظريات العلمية وذلك في القرن السابع عشر وظهرت النزعة لتقديس العقل وأنه مستقل بالمعرفة بعيداً عن الوحي، وجعل دعاة المذهب العقلي دائرة للعقل ودائرة للوحي.

ثالثاً: الثورة الفرنسية:

تمخضت الثورة عن نتائج بالغة الأهمية فقد ولدت أول مرة في تاريخ أوروبا المسيحية دولة جمهورية لا دينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب، وليس باسم الله وعلى حرية التدين بدلاً عن الكثلكة وعلى الحرية الشخصية بدلاً عن التقيد بالأخلاق الدينية وعلى دستور وضعي بدلاً من قرارات الكنيسة، قال توماس جفرسن إن القسيس في كل بلد وفي كل عصر من أعداء الحرية وهو دائماً حليف الحاكم المستبد يعينه على سيئاته في نظير حمايته لسيئاته هو الآخر. وصبت الجماهير جم غضبها على الكنيسة وتصرخ خلف ميرابو اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس.

رابعاً: القوى الشيطانية الخفية:

المقصود بها اليهود الذين نجحوا في تحويل الثورة الفرنسية من ثورة على مظالم الدين إلى ثورة على الدين نفسه وجعلوا لفظة الدين عند الشعوب الأوروبية مرادفة للظلم والتخلف والاستبداد.

نظرية التطور

قبل هذه النظرية نجد أن الإيمان المسيحي والأخلاق المسيحية قد تعرضا لضربات قاسية وهزات عنيفة وقد كان لهذه النظرية آثار.

١- انهيار العقيدة الدينية.
٢- نفي فكرة الغاية والقصد.
٣- حيوانية الإنسان وماديته.
٤- فكرة التطور المطلق.

هذه مجمل أسباب العلمانية وهي أسباب متعلقة بأوروبا لا علاقة لها بالشرق الإسلامي على الإطلاق.

كان الغرب الرأسمالي في ظروفه الدينية المتردية هو البيئة الصالحة والتربة الخصبة التي نبتت فيها شجرة العلمانية وترعرعت وقد كانت فرنسا بعد ثورتها المشهورة هي أول دولة تقيم نظامها على الفكر العلماني، ولم يكن هذا الذي

حدث من ظهور الفكر العلماني، والتقيد به. بما يتضمنه من إلحاد وإبعاد الدين عن كافة مجالات الحياة، بالإضافة إلى بغض الدين ومعاداته ومعاداة أهله. ذلك لأن الدين عندهم حينئذ لم يكن يمثل وحي الله الخالص الذي أوحاه إلى عبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وإنما تدخلت فيه أيدي التحريف والتزييف، فبدلت وغيرت وأضافت وحذفت فكان من نتيجة ذلك أن تعارض الدين المبدل مع مصالح الناس في دنياهم ومعاملاتهم في الوقت نفسه تعارض مع حقائق العلم الثابتة، ولم تكتف الكنيسة - الممثلة للدين عندهم - بما عملته أيدي قسيسها ورهبانها من التحريف والتبديل، حتى جعلت ذلك ديناً يجب الالتزام والتقيد به وحاكمت إليه العلماء المكتشفين والمخترعين وعاقبتهم على اكتشافاتهم العلمية الناقضة للدين المبدل، فاتهمتهم بالزندقة والإلحاد وقتلت من قتلت وحرقت من حرقت وسجنت من سجنت. ومن جانب آخر فإن الكنيسة - الممثلة للدين عند النصارى - أقامت تحالفاً غير شريف مع الحكام الظالمين وأسبغت عليهم هالات التقديس والعصمة وسوغت لهم كل ما يأتون به من جرائم وفظائع في حق شعوبهم، زاعمة أن هذا الدين الذي ينبغي على الجميع الرضوخ له والرضا به.

ومن هنا بدأ الناس هناك يبحثون عن مهرب لهم من سجن الكنيسة ومن طغيانها ولم يكن مخرجهم الذي اختاروه إذ ذاك إلا الخروج على ذلك الدين الذي يحارب العلم ويناصر المجرمين والتمرد عليه وإبعاده وطرده من كافة جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والعلمية والأخلاقية وغيرها. وليتهم خرجوا من هذا الدين المحرف إلى الإسلام. ولكنهم أعلنوها حرباً على الدين عامة لقد غطى الفهم العلماني الحياة الأوروبية في كافة المجالات الحياة التي منها علمانية الحكم وعلمانية الاقتصاد وعلمانية العلم وعلمانية الاجتماع والأخلاق وعمانية الأدب والفن.

لقد كان لوجود العلمانية في العالم الإسلامي كذلك أسباب نذكر منها:

أولا: انحراف الأمة الإسلامية

في القرون الأخيرة انحطت الأمة الإسلامية وانحرفت عن فهم الإسلام نفسه وانحسر مفهومه وتصوره في معاني ضيقة ومدلولات محدودة وهو نتيجة وسبب في

آن واحد. نتيجة الوهن الذي أصاب الأمة (حب الدنيا وكراهية الموت) وهو سبب ما تلاه من أحداث جسام ومخاطر عديدة، نذكر منها الركود العلمي والضعف المادي والمعنوي. هذا جعل الأمة الإسلامية لقمة سائغة للكفار. وإذا كانت العلمانية ظهرت في أوروبا نتيجة لتحرير الدين النصراني فقد ظهرت في العالم الإسلامي نتيجة انحراف المسلمين والانحراف كان له مظاهر عديدة.

ثانيا: التخطيط اليهودي الصليبي

ولنضرب مثلاً على ذلك بأول عمل قام به الإنجليز في الهند هو إلغاء الشريعة الإسلامية وأول عمل قام به نابليون في مصر هو تعطيل الشريعة وإحلال القانون الفرنسي محلها وأول عمل قام به أذناب المخطط اليهودي في تركيا هو إلغاء الشريعة الإسلامية ثم إعلان تركيا دولة لا دينية علمانية، وهي رمز الخلافة ودوحة الإسلام آنذاك.

وتحول الصراع الغربي العلماني مع الشرق الإسلامي من حرب المسلمين إلى حرب العقيدة الإسلامية وأصبح ميدان الحرب بدلاً من الأرض الأدمغة. وبدأ الغرب الرأسمالي العلماني لإخراج الأمة من الإسلام وخطط لذلك بقية إخراج الأمة الإسلامية من دينها وتعريتها من مقوماتها ووجودها وحملها على العلمانية وانتظمت لذلك جيوش الغزو في ثلاثة أجنحة:

١- قوى الاحتلال المباشر

٢- المستشرقون

٣- المبشرون.

سماها عبد الرحمن حبنكة الميداني في كتاب (أجنحة المكر الثلاثة) الإستعمار، الاستشراق، التبشير.

كان أول من دعا إلى العلمانية بشعارها الصريح وتحت أسماء أخرى كالقومية والوطنية هم نصارى الشرق. وهؤلاء لم يكن يخفي عليهم ما ألحقته العلمانية بدينهم في أوروبا ويمكن يكون هذا دافعاً أن تقضي على الإسلام كذلك وكان لهم جهود كثيرة في هذا المجال.

العلمانية مبدأ مستورد للعالم الإسلامي بل هو مؤامرة خطيرة، العلمانية ضد أصالتنا وسيادتنا لأنها مبدأ مستورد من خارج أرضنا ومن قوم غير قومنا لهم تاريخ غير تاريخنا ومفهوم غير مفاهيمنا وقوانين غير شريعتنا وأوضاع غير أوضاعنا. أنهم احتاجوا إلى العلمانية لظروف خاصة بهم ونحن لا حاجة لنا إلى العلمانية لأنها كانت حلاً لمشكلاتهم مع كنيستهم وهي عندنا تكون مشكلاً في ذاتها. لقد تنحى الدين عن الحياة في أوروبا بعد هزة عنيفة أصابته يرجع ذلك أسباب في المسيحية نفسها وأخرى إلى سلوك رجال الدين كما تقدم وأرادوا أن ينقلوا ذلك إلى بلاد المسلمين.

لقد كان لتسرب العلمانية إلى المجتمع الإسلامي أسوأ الأثر على المسلمين في دينهم ودنياهم وهي ثمار خبيثة للعلمانية نذكر منها:

١- رفض الحكم بما أنزل اللّٰه وإقصاء الشريعة عن كافة مجالات الحياة.
٢- تحريف التاريخ الإسلامي وتزييفه.
٣- إفساد التعليم.
٤- إذابة الفوارق بين حملة الرسالة الصحيحة وهم المسلمون وبين أهل التحريف والتبديل والإلحاد.
٥- نشر الإباحية والفوضى الأخلاقية.
٦- محاربة الدعوة الإسلامية.
٧- مطاردة الدعاة إلى اللّٰه.
٨- التخلص من المسلمين الذين لا يهادنون العلمانية.
٩- إنكار فريضة الجهاد في سبيل اللّٰه.
١٠- الدعوة إلى القومية أو الوطنية.

ولتحقيق هذا لهم وسائل عديدة نذكر منها على سبيل الاختصار. ولاسيما في تحريف الدين في نفوس المسلمين وتزييفه:

١- إغراء بعض ذوي النفوس الضعيفة والإيمان المزعزع.
٢- القيام بتربية بعض الناس في محاضن العلمانية في البلاد الغربية.
٣- تجزئ الدين والإكثار من الكلام والحديث والكتابة عن بعض القضايا الفرعية.

٤- تصوير العلماء وطلاب العلم والدعاة إلى الله بأنهم طبقة منحرفة خلقياً.
٥- الحديث بكثرة عن المسائل الخلافية واختلاف العلماء وتضخيم ذلك.
٦- إنشاء المدارس والمراكز الثقافية الأجنبية.

سؤال لابد أن يثار هل للعلمانية في العالم الإسلامي مبرر؟

على ضوء ما تقدم نقول العلمانية لا مبرر لها أن تستورد إلى العالم الإسلامي إذ أن العالم الإسلامي كان ولا يزال خلو من الأسباب والملابسات التي أدت إلى ظهور العلمانية في أوروبا ومجتمعات الغرب. فهي ليست من صميم الإسلام ولا هي من إنتاج المنتسبين إليه. أصبحت العلمانية في معظم بلدان الإسلام واقعاً فعلى المسلمين أن يغيروا هذا الواقع الأليم الذي يكاد يجرف الأمة الإسلامية كلها بعيداً عن الإسلام. لا خروج للمسلمين من هذا الواقع المرير إلا بالعلم والعمل وفي هذا تفصيل:

١- العمل على أسلمة المناهج.
٢- تنقية المواد العلمية من الكفريات والضلالات المدسوسة بها.
٣- أن ينتهز المعلم الفرصة كلما سنحت له لتوضيح مفهوم من مفاهيم الإسلام.

في هذه الورقة بعنوان العلمانية حاولت أن أسلط الأضواء على مبدأ خطير غزا حياة المسلمين على مستوى الأفراد والدول حيث وضحت معناها وبينت أن في المعنى مغالطة خرجت منها بالمعنى الصحيح المضاد للأديان وضحت كيف ظهرت هذه العلمانية في أوروبا أي الأسباب التي دعت لها وقدومها إلى العالم الإسلامي وأسباب ذلك ومن هم قادتها إلى العالم الإسلامي والآثار التي تركتها على المجتمع المسلم وذكرت وسائل العلمانية في تحريف الدين الإسلامي.

ووضح من الدراسة أن العالم الإسلامي ليس في حاجة إلى استيراد العلمانية ثم أوضحت ما هو واجب المسلمين تجاه هذا الواقع المرير والغزو العلماني المعاصر.

(ب) الديمقراطية

من الأفكار التي وفدت إلى العالم الإسلامي مع الإستعمار الأوروبي الغربي النصراني فكرة الديمقراطية، وهي تعبر عن نظام الحكم المنبثق عن الفلسفة العلمانية التي تقدم الكلام عنها. ولابد أن نلقي الضوء على هذا المصطلح.

فالديمقراطية Democracy مشتقة من لفظين يونانيين De mos (الشعب) وKratos (سلطة) ومعناها الحكم الذي تكون فيه السلطة للشعب وتطلق على نظام الحكم الذي يكون الشعب فيه رقيباً على أعمال الحكومة بواسطة المجالس النيابية ويكون لنواب الأمة سلطة إصدار القوانين(١). يقول محمد أحمد علي مفتي "الديمقراطية حكم الشعب ويمكن تعريف الديمقراطية إلى عدة أقسام:

١ـ التعريف المعياري الكلاسيكي:

ويبنى على قاعدة (الخير العام) والإرادة العامة التي تدفع الأفراد نحو المشاركة الشعبية في الحكم وذلك يعني أن الديمقراطية القائمة على المشاركة الشعبية والتي تعني حكم الشعب إنما تبنى على قاعدتين الإرادة العامة التي تجعل الأمة صاحبة السيادة ومصدر السلطان، "الخير العام" الذي يعني أن إقامة مجتمع ديمقراطي يهدف ويؤدي إلى تحقيق الخير العام والسلام الاجتماعي العام(٢).

٢ـ التعريف الإجرائي للديمقراطية:

وهذا ينادي بأن الديمقراطية لا تعدو كونها طريقة معينة لاتخاذ القرارات ومن ثم فهي ليست فلسفة معينة للحياة لأنها تحوي فلسفة سياسية محددة يبنى

---

(١) محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، الطبعة الخامسة (بيروت: دار الشروق، ١٩٩١م) ص١٧٨.

(٢) محمد أحمد علي المفتي، نقض الجزور الفكرية للديمقراطية الغربية، الطبعة الأولى (الرياض: المنتدى الإسلامي، ٢٠٠٢م) ص١٣

عليها نظام ومن هذا المنطلق يرى بعضهم أن الديمقراطية يمكن أن تطلق على أي نسق سياسي واجتماعي واقتصادي كالديمقراطية الرأسمالية والديمقراطية الاشتراكية رغم التباين بين النظام الاشتراكي والرأسمالي(١).

٣ـ التعريف الأيديولوجي:

أدى تبنى النظرة الإجرائية للديمقراطية إلى إغفال كون الديمقراطية الغربية تقوم على قيم اجتماعية محددة فالديمقراطية نظام قائم على نظرة معينة للكون والحياة والإنسان وهي تحمل بعداً "عقدياً" وترتبط بمفهومات محددة ومعتقدات مشتركة بين الجماعة. والديمقراطية بهذا المعنى تمثل نسقاً فلسفياً أو قاعدة تبنى عليها النظرة إلى المجتمع، تستمد هذه النظرة جذورها وأفكارها من المدرسة الليبرالية التي يعد من أبرز مفكريها جون لوك وجون استيوارت ميل وآدم سمث وديفيد هيوم، ورغم اختلاف وجهات النظر بين هؤلاء المفكرين الغربيين فإن هناك عدداً من الأمور المشتركة بينهم منها النظرة (الفردية) للإنسان والتي تجعل الفرد وحدة مستقلة قائمة بذاتها تتصل بغيرها لتحقيق مصالحها الذاتية ومن ثم يمثل غاية البناء الاجتماعي(٢).

أول من مارس الديمقراطية هم الإغريق في مدينتي أثينا وأسبارطة، حيث كانت تقوم في كل من المدينتين حكومة (يطلق عليها اصطلاحاً اسم حكومة المدينة، أي الحكومة التي تقوم في مدينة واحدة منفردة) وكان أفراد الشعب من الرجال في كل المدينتين يشاركون في حكم المدينة فيجتمعون في هيئة جمعية عمومية فيتشاورون في كل أمور الحكم فينتخبون الحاكم ويصدرون القوانين ويشرفون على تنفيذها ويضعون العقوبات على المخالفين.

وكان حكم الشعب مطبقاً بصورة مباشرة في كل المدينتين وكانت التسمية منطبقة على الواقع انطباقاً كاملاً. ولكن هذه الصورة من الديمقراطية

---

(١) المرجع نفسه ص١٥.

(٢) محمد أحمد علي مفتي، ص٢١.

انتهت بانتهاء حكومة المدينة في كل من أثينا وأسبارطة وإن ظلت محفوظة في ذاكرة أوروبا ككثير من الأفكار والقيم والمبادئ الإغريقية التي بقيت كامنة في الفترة التي غلبت فيها على أوروبا مثل هذه الأفكار، ثم عادت إلى الظهور بعد قيام (النهضة) على التراث الإغريقي الممتزج بالتراث الروماني الذي يطلقون عليه في اصطلاحهم Greco - Roman.

وقد ظل الإقطاع يحكم أوروبا أكثر من ألف عام في ظل الإمبراطورية الرومانية والقانون الروماني. ولم تغير المسيحية شيئاً من سماته في هذه الناحية لأن الكنيسة لم تحاول تطبيق شريعة الله. وتركت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية تجري ما كانت عليه، في ظل الإمبراطورية الرومانية دون تعديل يذكر. وحين نازعت الملوك والأباطرة سلطانهم لم يكن ذلك من أجل إلزامهم بالخضوع لهواها هي وبسلطانها الشخصي. وفي ظل الإقطاع لم يكن للشعب وجود إلا بوصفه قطعاً آدمية لاصقة بالطين. لا كرامة لها ولا حقوق.

كان هناك ملوك مستبدون يحكمون بمقتضى "الحق الإلهي المقدس" باعتبارهم "ظل الله في الأرض" فكلامهم أمر وأمرهم مقدس وماعن لهم من أهوائهم فهي الأوامر واجبة التنفيذ.

ويعاونهم في تثبيت سلطانهم وتوكيده في الأرض أمراء الإقطاعيات الواقعة في ملكهم مقابل إطلاق يد هؤلاء الأمراء (الذين يسمون بالنبلاء أو الأشراف) في إقطاعياتهم يتصرفون فيها كيف شاءوا دون مراجعة ولا رقابة تضبط تصرفاتهم لأن الذين يعيشون على أرض الإقطاعية هم أما عبيد وأما في حكم العبيد وسلطان الشريف عليهم سلطان مطلق بحكم القانون فهو بالنسبة لهم يمثل السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية جميعاً في آن واحد(١).

وعليه فإن الديمقراطية طراز معين للعيش يتفق مع الإحساس الدائم بالرغبة في التغيير التي تحرك الأغلبية وتدفعهم نحو تحويل أوضاعهم الاجتماعية تتناسب

(١) محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، مرجع سابق ص١٧٩.

مع التغييرات الحياتية المتعددة، فالديمقراطي هو ذلك الإنسان القادر على تعديل أوضاع حياته وأفكاره ومبادئه وقيمه وفقاً للمتغيرات الاجتماعية لا تبنى على قواعد ثابتة، بل هي نتاج لتفاعل الأفراد وخبراتهم واتفاقهم ولذلك فيما يراه ممثلاً للحق والعدل فهو الحق والعدل، فالإطار الذهني الديمقراطي يبني على الثقة المتناهية في (العقل) الذي يمكن الإنسان من الحياة في إطار المجتمع (التعددي) بتقبله لنمط حياة الآخرين مما يعكس قدراً كبيراً من العقلانية، أضيف إلى ذلك أن (التعددية) تضفي على الديمقراطية الرأسمالية طابعاً خاصاً يجعلها تختلف كلية عن المجتمعات التقليدية والاشتراكية التي يفر المجتمع فيها منظوراً جماعياً للخير العام.

هذا في حين يمتاز المجتمع التعددي بعدم وجود منظور جماعي واحد للخير والفضيلة. ولذلك فوجود منظور أخلاقي واحد للقيم في المجتمع يتعارض مع الفكر التعددي، ومن ثم فأولئك الذين يرغبون في رؤية قيم عقائدية أو أخلاقية واحدة تسود في المجتمع لابد أن ينتهي بهم المطاف إلى معارضة التعددية، وبناء عليه فالمجتمع الديمقراطي غير ملزم بتبني منظور للوحدة الاجتماعية وحين يسود أو يسعى أي منظور عقائدي أخلاقي تعرض رؤيته على المجتمع فإنه يصبح من المتعذر بناء مجتمع ديمقراطي وذلك لأن الديمقراطية تبنى على المنظور العلماني التعددي للمجتمع[١].

الديمقراطية نظام علماني قائم على سيادة الأمة أي حق الأمة في تبني القوانين المنظمة للحياة استناداً إلى أن الأمة هي مصدر السلطات.

فالديمقراطية منبثقة من المبدأ الرأسمالي القائم على فصل الدين عن الدولة وهي تعني كما هو معروف حق الشعب في اختيار النظام الذي يطبق عليه ورفض النظام الذي لا يريد، وحتى استئجار حاكم لتطبيق النظام الذي اختارته الأمة فالنظام الديمقراطي والقوانين المطبقة تعبر عن الإرادة العامة في الدولة، ومن ثم

---

(١) محمد أحمد علي مفتي، نقض الجذور الفكرية للديمقراطية الغربية، مرجع سابق، ص٢١ -٢٢.

فلابد أن تصدر من الشعب صاحب السيادة ومصدر السلطات[١].

من الدراسة المتقدمة يتضح أن الديمقراطية هي الشكل السياسي لإدارة الدولة في ظل العلمانية ومعروف أن العلمانية ضد الدين. وكل من العلمانية والديمقراطية من أفكار الإستعمار الغربي التي وفدت إلى العالم الإسلامي. وكان لها أثر كبير على الحياة ولاسيما الحياة السياسية وقد كان لكل من العلمانية والديمقراطية أضرار لا تخفى على العالم الإسلامي بل الأخذ بالديمقراطية والتشبس بها ومحاولة تطبيقها في بلاد المسلمين أدى إلى إقرار طريقة للحكم وقواعده ذات مرجعية على غير الشريعة الإسلامية ومن ثم العمل على عزل المسلمين عن الأحكام الشرعية للمعالجة للظاهرة السياسية وإلى صرف أنظار المسلمين عن دراسة نظام الحكم الشرعي أي (نظام الخلافة) دراسة تفصيلية تساعد على بيانه ثم ترشيحه كنظام للحياة في نفوس المسلمين تمهيداً لتطبيقه في الواقع[٢].

(١) محمد أحمد مفتي، نقض الجذور الفكرية للديمقراطية الغربية، ص٣١، مرجع سابق

(٢) المرجع نفسه ص٩